نساء خالدات

ألف الكتاب الاستاذ أنور أحمد

وأهداه إلى «المرأة العربية» المعاصرة التى حطمت أغلالها، وانطلقت تشارك بعمق وايجابية فى صنع الحياة.

والحقيقة أنه بدوره كتب هذا الكتاب بعمق وايجابية وأسلوب شيق مشبع بروح الود والتقدير للمرأة العربية على أى أرض من وطننا العربى الكبير.

ومن هؤلاء بلقيس -ذات النطاقين- رينوبيا- فارسة الصحراء- صبيحة ملكة قرطبة- ست الملك- شجرة الدر- كليوباترا- سميراميس

من هذا الفارس؟

إنها صيحة خالد بن الوليد وهو يشير الى فارس طويل، عليه ثياب سود، قد حزم وسطه بعمامة خضراء، وسحبها على صدره ومن ورائة.. واندفع بجواره فمرق به كالشهاب وتقدم طليعة جيوش المسلمين.

ونظر أصحاب القائد العربى فرأوا ذلك الفارس المجهول يلقى بنفسه على عساكر الروم، ثم يخرج من بين صفوفهم وسيفه مخضب بالدماء ثم يعود فيكر عليهم ويخترق جموعهم معرضا نفسه للهلاك.

وعاد خالد يسأل عن الفارس فقال له من يحيط به من قواده:

والله ما ندرى أيها الأمير، فقد تلثم فما يظهر منه إلا حدق عينيه!

وتصايح المسلمون فى الصفوف الخلفية، وقد أخذهم العجب من صنيع الفارس الملثم:

- ما هذه الحملات إلا لخالد، ليس هذا الفارس إلا خالد بن الوليد

وقال «رافع بن عميره».

ومن يكون غير سيف الله المسلول؟

ولكنه لم يلبث أن رأى خالدا يشرف عليه فى طليعة الجيش فهمز جواده حتى أدركه وقال له:

من الفارس الذى تقدم أمامك أيها الأمير، فلقد بذل نفسه ومهجته؟

فقال خالد:

- والله انى لأشد منكم انكارا له.. ولقد أعجبنى ما ظهر منه ومن شمائله.

قال رافع:

أيها الأمير، إنه منغمس فى عسكر الروم يطعن يمينا وشمالا

وإنى لأخاف أن يتكاثر عليه فيفتكوا به

فصاح «خالد» بالناس

- معاشر المسلمين، احملوا جميعا وساعدوا المدافع عن دين الله.

وهجمت جيوش العرب بقيادة «خالد» على جنود الروم فزعزعت كتائبهم، وكان الفارس الملثم يخرج من قلب جيش الروم كأنه شعلة نار والخيل فى إثره.. وكلما لحقت به الروم، كر، عليهم وجندل منهم!

وأدركه رافع فصاح به

- لله درك من فارس بذل مهجته فى سبيل الله وأظهر شجاعته على الأعداء! اكشف لنا عن اسمك وارفع لثامك.

فلم يجبه الفارس، ومال عنه دون أن يخاطبه، وعاد فانغمس فى جند الروم.

ولكن «رافع» لم ييئس منه، فقد انتهز فرصة بروزه مرة أخرى وأقبل عليه فأمسك بزمام جواده وقال له:

- أيها الرجل الكريم، أميرنا يخاطبك وأنت تعرض عنه! اظهر لنا اسمك نزداد تعظيما..

ولكن الفارس الغامض لم يرد عليه جوابا، وكان خالد بن الوليد يسمع ويرى، فسار إليه بنفسه وقال له:

- ويحك! لقد شغلت بفعلك قلبى وقلوب الناس، فقل لى من أنت؟

فقال الفارس من تحت لثامه:

- اننى أيها الأمير لم أعرض عنك إلا حياء منك، لأنك أمير جليل، وأنا من ذوات الخدورا وبنات الستور!

فصاح خالد وقد امتلأت نفسه بالدهشة

- من أنت يرحمك الله؟

- أنا «خوله بنت الأزور» كنت مع بنات العرب فأتانى الساعى بأن «ضرارا» أخى أسير، فركبت وفعلت ما رأيت.

عندما تربص الروم للاسلام وحاولوا جمع حشودهم لحربه، لم يملك العرب إلا أن يأخذوا المبادأة باعتبار الهجوم خير وسيلة للدفاع.. فخرجت جموعهم لملاقاة الروم.. تقوم الرجال ولم تنكس النساء من سقيا وطعام وأهم من هذا عندى أنهن كن يقمن بحث الرجال على الثبات والايمان بالنصر..

ان الجيوش الحديثة تعنى عناية فائقة بالروح المعنوية وشد أزر الجنود فى المعركة وقد قامت المرأة العربية بهذا الدور حسبة واحتسابا بلا تلقين أو تخديم مما يضاعف قيمة العمل..

كان فى جيش خالد الذى نهد إلى الشام «ضرار بن الأزور» وكانت أخته خوله تسير فى مؤخرة الجيش مع نساء المجاهدين سواء كن زوجات أو أخوات.

وكانت خوله، طرازا وحدها.. كانت جميلة، شاعرة فارسه تلعب بالسيف والرمح فتغلب الرجال.. فى عصر يعتد بالبطولة والأبطال.. كانت القبيلة تهنأ إذا ظهر فيها أحد اثنين: شاعر أو فارس.. فان تظهر شاعرة فارسه فتلك قمة..وأن تكون الشاعرة الفارسه جميلة أيضا فالظاهرة هنا تخلب الألباب..

كم بين العربيات من بطولات.. نسيهن التاريخ ومن حقهن التنويه بل التمجيد.

مالت الشمس الى المغيب فأمر جنوده بالكف عن القتال بعد أن أيقن البطل من النصر الذى مَنَّ الله به عليه.. لقد أظهره الله على عدوه فتقهقرت فلوله متجهة إلى الشمال.

وشاهد الحراس العرب شبحا متشحا بالسواد يمشى بين القتلى ثم ينحنى عليها بين الحين والحين

وتقدم حارسان من الشبح فسمعا صوته باكيا يقول.

ياابن أمى ليت شعرى فى أى بيداء طرحوك؟ أم بأى سنان طعنوك، أم بأى حسام قتلوك؟

وعرف صوتها، أحدهما فقال لزميله:

- هذه ولاشك خوله بنت الأزور تبحث عن أخيها ضرار بين القتلى

- لله درها ما كان أشجعلها اليوم! أرأيت كيف قال لها خالد عندما بهرته: (سنحمل جميعا ونرجو الله أن نصل إلى أخيك فنفكه).

ثم أمر الجيش بالهجوم.

والتقى الجمعان.. وهجم خالد فى طليعة الجيش وهجمت خوله.. ولقد عظم على الروم ما نزل بهم من الفارس الملثم حتى قال قائلهم:

ان كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فمالنا بهم من طاقة

وما يدري انها فارسه.. وحسنا أنه لم يدر وإلا صعق.

وصفها أحد جنود المسلمين بقوله:

والله لقد رأيتها تحمل على عساكر الروم كأنها النار الحارقة فتفرج أمامها الصفوف وهى تجول يمينا ويسارا.. وتطلب أخاها فلا ترى له أثرا.. حتى مال النهار وافترق الجيشان.. فتعاود البكاء وتتفجع قائلة:

- ياأخى إنى لك الفداء! ليت شعرى أين أنت الآن؟ هل أنت أسير فى أيدى الأعداء.. أو لحقت بأبيك المقتول بين يدى رسول الله، فعليك منى السلام إلى يوم اللقاء.

وأقبل خالد بن الوليد يتفقد ساحة المعركة فأفضى اليه الحارسان بنبأ الفتاة.. فتقدم اليها يقول:

- إنه ليشق علينا ما تجدين على أخيك ياخوله.

فردت وهى تكفكف دموعها..

- حفظك الله أيها الأمير.. والله لقد ترك فى قلبى جمرة لا يخمد لهيبها ولا ينطفىء سعيرها! وما أدرى أحى هو فأرجوه، أو ميت فأبكيه.

قال خالد: بل حى بإذن الله

وفى هذه اللحظة أقبل أحد الحراس مسرعا يقول:

- أيها الأمير.. إنى أرى كوكبة من فرسان الروم تتقدم نحونا

فقال خالد: تأهبوا للقائهم

وأقبل جماعة من الفرسان حتى إذا بلغوا القائد العربى، خالد بن الوليد، ترجلوا وألقوا سيوفهم طالبين الأمان فسألهم خالد عن خبرهم فقالوا انهم من (حمص) وأنهم يسألونه الصلح باسم أهلها متعهدين بأداء الجزية المطلوبة والمفروضة فرد خالد

- نحن لا نصالحكم هنا.. ولكن إذا وصلت الى بلادكم يكون الصلح ان شاء الله تعالى.. إذا كان لكم فيه أرب.. وعليكم أن تبقوا معنا إلى أن يقضى الله ما هو قاض.

ثم سألهم عن ضرار بن الأزور فعلم من أحدهم أنه وقع فى الأسر بعد أن قتل من الروم عددا كبيرا وأنه فى طريقه الى حمص يحرسه مائه حارس.

ثم التفت خالد بن الوليد الى رافع بن عميره وقال

- أريد أن تأخذ من تحب من الفرسان وتسرع خلف القوم على أن تلحق بهم فتخلص ضرارا منهم.

وصدع خالد بالأمر. وعلمت خوله فتقلدت سلاحها وأتت جوادها وجاءت الى خالد بن الوليد وقالت له:

- أيها الأمير سألتك بالطاهر المطهر، محمد سيد البشر أن ترسلنى مع من أرسلت

فقال لها خالد:

- لقد أوغل الليل ياخوله وأخشى أن يصيبك سوء

وقال «رافع»

- نحن نكفيها مشقة السرى وأخطار الطريق فلتقم موفوره.

ونرد لها أخاها بإذن الله.

فهتفت خوله بالأمير فى لهفة الرجاء:

- بحق من أظهرك على أعدائك، وجعل النصر فى ركابك، وإلا ما أذنت لى بالسير معهم! لا تدعنى أيها الأمير انتظر هنا فيهلكنى الأسى فتبسم خالد من قولها وتمتم قائلا:

- لا نامت أعين الجبناء، خذها معك يارافع، فوالذى نفسى بيده أنها لتعدل فى شجاعتها عشرة رجال!

إنه يذكرنى هنا بالأستاذ العقاد حين كتب عن موضوع شهادة المرأة امام القضاء وبين الحكمة فيها ثم قال: (ومن النساء من تعدل شهادتها آلاف الرجال).

انطلق «رافع» ومن معه من الرجال فى طريق حمص، وسارت خوله فى إثرهم لا تختلط بهم ولكنها تركب معهم غير بعيد.

ونصب رافع كمينا لفرسان الروم فى الطريق حتى اذا لاح ركبهم، وكان بينهم «ضرار» يردد بصوت مسموع:

ألا أبلغوا قومى وخولة أننى أسير رهين موثق اليد بالقيد

سمعته «خوله» وعرفت صوته، فلم تتمالك نفسها أن صاحت من مكمنها:

قد أجاب الله دعاءك، وسمع رجاءك..

ثم لكزت جوادها فانطلق بها، وانقضت على القوم كما تنقض الصاعقة وهى تصيح:

الله أكبر الله أكبر

وتبعها «رافع» ومن معه وهم يهللون ويكبرون، وما هى إلا جوله أو جولتان حتى كان فرسان الروم بين قتيل وجريح، وهارب مذعور أطلق ساقيه للريح..

والبدر شاهد عليها كما يقول شاعرنا رامى فى: (هلت ليالى القمر)..

واكتست الصحراء حلة من الضياء كأنها تبارك أفراح اللقاء..

عاد ضرار ولم تنته القصة بعد

لا أعنى لها بقية ولكنى أقصد وراءها «فلاش باك» إذ قال الحارس الرومانى لزميله

- لم أر كاليوم نساء أقوى من الرجال!

فقال زميله متهكما!

- ولم أر كاليوم رجالا أضعف من النساء!

قال الأول:

- ويحك أتعنى جنودنا فى الميدان؟

- ألم تر كيف كانوا يفرون مذعورين امام العرب؟ هل يسعدك هذا التقهقر الطويل والهزائم المتصلة المنكره فى صحراء الشام؟ إن قومنا يفرون امام الرجال ثم يستأسدون امام النساء ثم يسوقهن سبايا.

وهل تظن مع هذا أن سوقهن سبايا أمر سهل؟ إن مقاومتهن وهن عزل من كل سلاح لأمر يثير العجب.. والاعجاب. هل تذكر واقعة (صحورا)؟ والخيمة الكبيرة التى ضمت الأسيرات العربيات؟

كانت خوله بنت الأزور بين الأسيرات.. دهمتها جيوش الروم وهى منعزلة مع النساء وأحاط فرساننا بالخيمة فساقوها مع غيرها من النساء إلى خيام أخرى فى مؤخرة الجيش ووضعوا عليه من حراسة قوية من جنود الروم.

وظن الروم أن الزمام فى أيديهم وأن الحلقة أحكمت حول الأسيرات..

وفجر الحصار الباغى غضب خوله فصاحت فى رفيقات الخيمة المحاصرة:

يابنات حمير وبقية تبع أترضين لأنفسكن أو شاب الروم؟

قالت سلمة بنت النعمان:

- لا والله لا نرضى ذلك أبدا

- واجتمع حول، خوله، النساء فقالت لهن:

- أين شجاعتكن، والله إنى لأرى القتل أهون عليكن مما ينتظركن من خدم الروم..

فقالت «عفراء بنت غفار»

- صدقت والله ولكن السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت ولكن مرة أخرى أين هو السيف.. لقد أخذونا على غرة.. فقالت خوله:

- نأخذ أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة وما النصر إلا من عند الله ولم تلبث «خوله» أن تناولت عمودا من أعمدة الخيمة وتبعتها النساء.

وصاحت «خوله» مرة أخرى وكأنها القائد فى المعركة:

- لا ينفك بعضكن عن بعض وكن كالحلقة الدائرة ثم عليكن بتحطيم رماح القوم واكسرن سيوفهم بأعمدة الخيام.

واندفعت «خوله» إلى خارج الخيمة وحولها باقى النساء.. فأسرع اليهن الحراس.. وكانت «خوله» تحمل عمودا طويلا

- دفعته فى صدر الحارس وكسرت به سيفه.. وفعل مثلها النساء.. ودارت بينهن وبين الحراس من جنود الروم معركة شديدة تخلصت النساء بها من الأسر وانطلقن فى الصحراء مهللات نحو مضارب الجيش العربى وأمامهن شابه فارعة الطول تلوح برفحتها فى الهواء مزهوة بالنصر المبين..

فهل يذكر التاريخ؟ ولعل تتذكر الأمة العربية بطولات بناتها ونسائها خاصة فى هذه الأيام التى لفحنا فيها الهجير..

ليس الرجال وحدهم فى الميدان

بل النساء

بل حتى أطفال الحجارة.